على هامش الفلسفة

طريقـــــة الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

قلنا فى الكلمة الأخيرة : ما هى الطريقة التى تتبع لمعرفة الخير من الشر ، ولتحديد المثل الأعلى الأخلاق تحديداً صالحاً مرضياً من الجميع ؟ تساءلنا كذلك بعد أن أثبتنا أن الأخلاق علم من العلوم[1] فيجب أن نسير فى دراسته على الطرائق العلمية التى تصل بنا إلى الغرض فى غير عوج ولا التواء

على أن الفصل فى هذا ليس سهلاً ميسوراً ؛ فهى مسألة ولا أبا حسن لها ؛ مسألة اشتجر فيها الخلاف بين المفكرين والفلاسفة ، بل لعل الخلاف لا يزال قائماً فيها حتى اليوم . يرى البعض أخذ الأخلاق من الدين — فهو المعين الذى ينقع الغلة ولا يكذب قاصده — أو مما وراء الطبيعة أو من علم الاجتماع ؛ ويرى آخرون أنه من الخير أن نتعرف المبادئ الخلقية بأداة المعرفة المباشرة أى بالحاسة الخلقية التى تدرك الخير والشر من نفسها بدون نظر واستدلال : « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » ؛ بينما يذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الواجب أن يطبق فى الدراسات الأخلاقية الطريقة التجريبية الاستقرائية

الأصول الاستنتاجية

من الممكن كما يرى فريق من الباحثين أن نستنتج الأخلاق إما من الدين أو مما وراء الطبيعة أو من العلم الذى تنتمى إليه العلوم وهو علم الاجتماع

بالبحث نعرف أن الأخلاق ، أو المبادئ الخلقية العامة ، فى كل الأديان التاريخية مستقاة من الإلهيات . ترى رجال الدين يقررون أولاً المسائل الخاصة بالله وصفاته وكماله ، وبالحياة الأخرى ونعيمها وعقابها ، ثم يربطون بذلك نتائج خلقية مردها للكتب المقدسة . يقررون أن الله لم يخلقنا عبثاً : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » وأنه لا بد محاسب كلا على ما جنت يداه : « لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وأنه لا بد من دار أخرى يكون فيها ذلك الحساب على ما أسلف المرء من خير أو شر : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا » . كما يقررون أن الجنة التى عرضها السموات والأرض « أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » وأن النار عقبى الظالمين . ويستنتجون من هذه الحقائق الدينية وأمثالها أن المرء يجب أن يكون خيّراً فى كل أعماله ، وأن ينأى دائماً عن الشر وبذلك يصل للكمال الأخلاق . والخير والشر هنا ما جاءت به الكتب السماوية

استنتاج منطقى حسن من الناحية العملية ؛ إلا أنه ليس له القيمة التى تؤتى ثمرها الخلق إلا لدى المؤمنين بالله والدار الأخرى والثواب والعقاب وبهذا أو ذاك من الكتب المقدسة . فكيف العمل بمن لا يؤمن بإله أو رسول ، أو بمن يؤمن بالإنجيل دون التوراة ، أو بالعكس ، أو بهذين دون القرآن الكريم ؟ إذن ليس من الممكن بهذا الطريق أن نصل لتحديد قانون أخلاق يرضاه الناس جميعاً على ما بينهم من خلف فى الأديان والمعتقدات « فضلاً عن هذا فالرباط الذى يكون بين هذه العقائد الدينية والأفكار والآراء والمبادئ الخلقية التى يربطونها بها يكون غالباً واهياً متداعياً، فلا يكون الاستنتاج قوياً له قيمته وخطره[2] »

وها هو ذا العلامة « جوستاف بيلو Gustave Belot » يقول عن هذه المسألة (من الناحية المسيحية طبعاً) : « ليفتح من يشاء أى كتاب من كتب العقائد الدينية : وحينئذ ماذا يجد ؟ يجد أن الجانب الأكبر منه مشحون بالنظريات الخاصة بالله وقدرته وصفاته وأن الأخلاق تجيء فى المركز الثانوى منه ، وأنه من الواجب أن نكره الطفل على أن يفهم ويقبل نظاماً من الاعتقادات الدينية دون أن نعنى بالتساؤل عما إذا كان فى مقدوره فهمها ! إن رجال الدين يجأرون بالشكوى من تزعزع الأخلاق وتدهورها من يوم لآخر لأن الإيمان يتزلزل من آونة لأخرى . لو أن هذا كان صحيحاً فعلى من تقع التبعة والمسئولية؟ أليس على هؤلاء الذين يعملون دائماً على تفهيم الأطفال أن الأخلاق تتعلق دائماً بالدين والعقائد الدينية ؟ مع أنه ليس فى مقدورهم حماية هذه الاعتقادات من حملات الشك ومعاركه التى تنشب من حين لآخر . إنه مما يتفق مع حقائق الأشياء كما يتفق مع الحقائق العملية أن يرد للأخلاق استقلالها »[3]

(١) فى الأعداد رقم : ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ من الرسالة

(١) شالى : الفلسفة العلمية والفلسفة الأخلاقية
Challay.: Philosophie scientifique et philosophie morale.

(٢) دراسة الأخلاق الإيجابية. Etude de morale positive.

ينقد هذان الأستاذان الباحثين فى الأخلاق من المسيحيين ، وقد أصابا فى كثير مما نقداه . إن الديانة المسيحية أعلنت فى مبدأ أمدها الحرب الضروس على الفلسفة الاغريقية معلنة أن الأخلاق ليس لها أن ترجع فى معينها للعقل والنظر ، ولا أن تُترك للفلاسفة الذين هم بشر يخطئون ويصيبون ؛ وإنما الدين وحده هو الحرى بنشر التعاليم الصحيحة والأخلاق الفاضلة التى يوحى بها العليم الحكيم ؛ ومن ثم أصبحت الأخلاق لا ترتكز على النظر المنطق السليم ، بل على الوحى المسيحى وحده ، وصار أجل الفضائل فى نظر المسيحية هو حب الله والإيمان به اللذان يوصلان إلى الخير الأسمى والسعادة الكاملة فى الدار الأخرى بدل أن كان أرقى الفضائل وأسماها هى الحكمة فى رأى الفلسفة اليونانية

أما الإسلام فلم يخس العقل حقه ولم يحجر عليه فى التفكير . أمرنا أن نعمل عقولنا فيما خلقت له ، وأن نفكر فى خلق السموات والأرض : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب » . كذلك لم يلجأ الإسلام فى تحديد قيم الأعمال الأخلاقية ، وبيان خيرها من شرها إلى ما فيها من منافع وملاذ فى العاجل أو فى الآجل كما يتوهم واهم إذا قرأ وصف الجنة ، والترغيب فيها ، والنار والترهيب منها ؛ بل هو يخاطب كلا حسب ما يسعه فهمه تمشياً مع الغرائز الإنسانية . حتى إذا فعل المرء الخير رجاء الصواب مرات عديدة أصبح له عادة ، ويتشربه قلبه ويفهم ما فيه من جمال وسمو ذاتيين ، فينتهى به الأمر إلى أن يفعله لذاته وحده . وهذا عين ما أراده الرسول إذ قال: « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . أى أن المثل الخلق الكامل هو ما وصل إليه صهيب وأمثاله من فعل الخير ، وترك الشر لذاتهما لا رغباً ولا رهباً .

على أننا نجد فى تاريخ التفكير الإسلامى أن فريقاً كبيراً من المسلمين وهم المعتزلة يقررون أن الأعمال توصف بالحسن والقبح لذاتها لا لأن الشرع أمر بها أو نهى عنها ، فيكون الشرع مبينا لصفاتها لا مثبتا لما ليس فيها . ويدللون لذلك باتفاق الناس على كثير من الفضائل والرذائل قبل مجىء الشرائع السماوية ، إلى غير ذلك من الأدلة التى ليس هذا موضعها[1] وليس هذا رأى المعتزلة وحدهم بل كان رأى غيرهم من مفكرى المسلمين وحكمائهم أمثال الفارابى الذى يؤكد أن العقل يستطيع أن يحكم على العمل بأنه خير أو شر بنفسه بدون رجوع للوحى ؛ لأن العقل عنده ليس إلا قبسا من النور الإلهى . وابن طفيل فى رسالة « حى ابن يقظان » يجعل العقل قادراً على إدراك الحقائق كلها [ومنها طبعاً الخير والشر] وعلى العروج فى المعارف العُلى حتى يصل للحقيقة المطلقة ، لمعرفة الله تعالى . وابن رشد فيلسوف الأندلس بل الإسلام يقرر أن العمل يكون خيراً أو شراً لذاته لمعان يكشفها العقل ، وليس ذلك لأن الله أمر أو نهى[2]

والخلاف فى هذه المسألة يذكرنا بالخلاف بين الفلاسفة المحدثين فيما سمّوه « نظرية القيم » . فإنا نراهم مختلفين فى أن القيم التى تقدر بها الأشياء من جمال وقبح وخير وشر وحق وباطل صفات عينية فى الأشياء ؛ كالألوان والطعوم والروائح ، وبذلك يكون لها وجود مستقل عن العقل الذى وظيفته حينئذ إدراكها لا إثباتها ؟ أم هى من صنع العقل « يصف بها بعض الناس الأشياء إذا كانت لها فى نظرهم قيمة ، ولهم فيها غرض أو غاية ، ولا توجد إلا حيث توجد هذه الغاية » . ذهبت طائفة إلى الرأى الأول ، وأخرى إلى الرأى الثانى[3] . ولكل وجهة هو موليها .

وأخيراً ؛ إذا كان أخذ الأخلاق من الدين وربطها به منقوداً من بعض نواحيه كما رأينا ، فهل من الممكن استنتاجها من معين آخر ؟ ذلك ما حاوله كبار علماء ما وراء الطبيعة . وموعدنا ببسط آرائهم الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى .

محمد يوسف موسى

(١) يرجع فى هذا إلى كتاب المواقف وغيره من كتب الكلام والفرق الاسلامية .

(١) ابن رشد ومذهبه لأرنست رينان . وغيره من المؤلفات العربية .
(٢) كتاب فلسفة المحدثين والمعاصرين للأستاذ ا . وولف وترجمة الدكتور أبى العلا عفيفى .

ليلى المريضة فى العراق

كتاب يفصّل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ، ويشرح جوانب كثيرة من أسرار المجتمع وسرائر القلوب فى مصر والشام والعراق

يقع فى ثلاثة أجزاء وثمن الجزء ١٢ قرشاً
ويطلب من المكتبات الشهيرة فى البلاد العربية